بحوث في اللغة العربية: نصف سنوية علمية محكمة لكلية اللغات بجامعة أصفهان

العدد ٢٤ (ربيع وصيف ١٤٤٢هـ / ١٤٠٠هـ.ش)، ص ٥٣ ـ ٧٤

المقالة: محكمة

الأفعال الكلامية لتعامل المؤمنين في القرآن الكريم في ضوء نظرية تداولية
سورة لقمان نموذجا[1]

عزت ملاابراهيمى *

بايزيد تاند **

الملخّص

التداولية ترتبط بالتواصل السليم أو التواصل الأمثل الذي يحرز من خلاله، أكبر قدر من الوضوح والشفافية لانعكاس اللغة. بما أنها تعدّ عملية تصاعدية مؤدية إلى طبقة عالية من المعنى والسياق، فهي تستوعب جميع مستويات اللغة من الحالة الانفرادية، والتواصلية، والحوارية. وللتداولية محاور مختلفة، منها الأفعال الكلامية التي تحيل الصورة الذهنية للغة إلى الصورة الفعلية اللغوية التأثيرية. وسورة لقمان هي إحدى السور المهمة التي تحمل آداب التعامل والمعاشرة، بذلك تحتاج إلى الأسلوب التواصلي أو التداولي الذي يحقق مقصدية الكلام غير المباشر. وطبيعة الأفعال الكلامية والحجاجية تجسّد ما في السورة من الأغراض والمقاصد من خلال إستراتيجية تواصلية حجاجية، كما تهتمّ أيضا بوقع الكلام وتأثيره على المتلقي. تتبع المقالة المنهج الوصفي ـ التحليلي، مستمدة من مناهج أوستين وسيرل، اللذين قاما بتطوير نظرية الأفعال الكلامية. مما توصّلت إليه هذه المقالة أنّ الأفعال التقريرية أو الإخبارية في السورة تشمل الغرض غير المباشر، كتشجيع المؤمنين على المعاشرة الحسنة والأدب، كما تدلّ الأفعال الإنجازية أو الإنشائية الموجودة فيها على التحذير والتنبيه امتداداً إلى التشجيع في بعض الأحيان. وهذه المعاني تكون ذات دلالة نفسية شعورية تبعث الحياة والتحرك في نفس المتلقي، وتحتوي على معان أخرى غير الدلالات المباشرة، يمكن الوصول إليها من خلال المقام الذي وردت فيه.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، التداولية، الأفعال الكلامية، تعامل المؤمنين، سورة لقمان

١ــ تاريخ التسلم: ١٣٩٩/٤/٨هـ.ش؛ تاريخ القبول: ١٣٩٩/٦/٣٠هـ.ش.

* أستاذة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، طهران، إيران (الكاتبة المسؤولة) Email: mebrahim@ut.ac.ir

** حاصل على الدكتوراه في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، طهران، إيران Email: bayazedtand@gmail.com

Copyright©2021, University of Isfahan. This is an Open Access article distributed under the terms of the Creative Commons Attribution License (http://creativecommons.org/licenses/BY-NC-ND/4.0), which permits others to download this work and share it with others as long as they credit it, but they cannot change it in any way or use it commercially

HTTP://DX.DOI.ORG/10.22108/RALL.2020.123725.1299

١. المقدمة

التداولية هي معنى الكلام، بالإضافة إلى الظروف التي يقال فيها الكلام. فمبدائها المعاجم اللغوية. والتداولية لا تهتم بالمعاني المعجمية؛ فأصل الكلام موجود، ولكن نبحث عن الظروف التي قيل فيها. وهذا ما يقوم بدراسته الباحث التداولي الذي لا يبقى على المعنى السطحي المباشر، فإنّما يذهب إلى المعنى الخفي ما بين السطوح وما هو المقصود بهذا الكلام. ذلك لأن التداولية مرتبطة بالمجتمع، حيث تحقق البعد التواصلي الاجتماعي بين المرسل والمرسل إليه، وفق السياق المقامي والمقالي. فالبعد اللساني للنص مملوء بالقلق المعرفي، كالألغاز الحافلة بالغموض والتعقيد. فلا بدّ لعلم التداولية أن يقوم بفكّ هذه الانغلاقات.

تعد نظرية الأفعال الكلامية أهم النظريات التي قامت عليها التداولية في الدرس اللساني الحديث، وذلك باعتبارها المنوّر الحقيقي لظلال اللغة وإيحاءاتها في الواقع، حيث تعنى بدراسة ما يفعله المرسلون بالوسائل الاتصالية (اللغة)، من إخبار وفعل أفعال وتأثير؛ وكل ذلك ينجح من خلال النشاط التواصلي والحجاجي بين المتكلمين. وما يرتبط بالحجاج، لقد انبثقت نظريته في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها أوستين وسيرل[1].

يتشارك التناسق والتآلف اللغوي في بناء العلاقة اللغوية والتفاعلية. وبقدر ما كانت هذه العلاقة مجديةً، تزيد المعنى المتحقق الفعلي، مما يؤدي إلى خروج اللغة من النسق اللغوي إلى المقام الإنجازي والحقيقي. فيكون هذا التفاعل مقدرة على استعمال اللغة في سياقات فعلية تتجلى فيها، فلا تكتمل وظيفة العلاقة التفاعلية المتحققة عمليا بين الجمل، إلا بتركيب العناصر الخطابية بأجمعها. والمتلقي هو أساس الخطاب ومصدره، والذي يرسل الكلام إلى حيّز الإنجاز والفعل. إذن يعدّ المتلقي نقطة شرارة انقداح النص، مما يلتهب النص الحقيقي الفعلي انطلاقا من نفسيته الجياشة، وهو من تتولد بين أيديه الوظيفة التعبيرية.

والعنوان لهذا البحث هو: "الأفعال الكلامية لتعامل المؤمنين في القرآن الكريم في ضوء نظرية تداولية؛ سورة لقمان نموذجا"، وينقسم إلى قسمين: يتناول القسم الأول المفاهيم العامة للمصطلحات اللسانية المتعلقة بالبحث، أي التداولية ونظرية الأفعال الكلامية من رؤية النظر أوستين وسيرل، ثم يرصد في سورة لقمان ملامح الأفعال الكلامية وما لها من أثر ووقع في نفسية المتلقي، وذلك يكون بالنظر إلى طرفي التواصل من المرسل والمرسل إليه والسياق؛ أما القسم الثاني فيتطرق إلى وظيفة الحجاج مع بيان دوره في خلق الأساليب المؤثرة في النفوس، التي تنبثق نظريته في اللغة من داخل نظرية الأفعال الكلامية.

أما سبب اختيار سورة لقمان فيكمن في أنها سورة وعظية تبثّ معاني الإرشاد والحكمة؛ لذا هي من أجمل السور التي تعبّر عن مفاهيم المعاشرة الحسنة، وتشجّع الناس على التواضع والصلاح والخير؛ وهي أيضا سورة التربية، فقد تأتى تلك التربية على لسان لقمان، وهي تشمل المحاور التالية: قدرة الله المطلقة وتوحيده، وتكريم الوالدين، وفهم حقيقة الدنيا، وآداب التعامل والمعاملة الحسنة، والتخطيط للحياة.

١ـ١. أسئلة البحث

نحاول في هذه المقالة الإجابة عن الأسئلة التالية:

1 .Austin j.Searle

ــ كيف تسهم الأفعال الكلامية المستمدة من فعل الانسجام في إقبال المتلقي على الخطاب والتفكير فيه من خلال تعامل المؤمنين في سورة لقمان؟

ــ كيف نحصل على المعنى غير الصريح في تعامل المؤمنين من خلال الأفعال الكلامية، أثناء التواصل الكلامي في السورة؟

ـ كيف تكون قوّة الأسلوب الحجاجي للإقناع والاستمالة في سورة لقمان معتمدة على نظرية الأفعال الكلامية؟

١ـ٢. خلفية البحث

كتب بعض الباحثون دراسات حول التداولية وأثرها في خلق الفعل وتأثيره. ومن أهم الدراسات في هذا المجال ما يلي:

مقالة *تحليل متن‌شناختى سوره لقمان بر اساس نظريه كنش‌گفتارى سرل*، لحسين خاكپور وفاطمه عقدايى. فهي دراسة تتناول أنواع مختلفة من الأفعال الكلامية التي تنبني على رؤية جان سيرل. ورسالة *الأفعال الكلامية في سورة الكهف: دراسة تداولية*، لآمنة لعور. فهي اهتمّت بنظرية الأفعال الكلامية التي تعدّ من أهم نظرية في اللسانيات التداولية؛ لذلك تناولت دراسة هذه الأفعال وما يفعله الناطقون باللغة من تأثير وتبليغ وإنجاز أفعال. ورسالة الدكتوراه المعنونة *بالاتصال اللساني ونظرياته التداولية في التفكير البلاغي*، لفاطمة محمد عبد الرحمن محمد. فدرست الباحثة التراث العربي البلاغي من منظور حداثي تداولي، حيث يؤدي ذلك إلى آفاق أرحب ورؤية متوسعة في إدراك خصائصه العلمية والمنهجية، وذلك من خلال دراسة التداولية ومقارنتها بالبلاغة العربية القديمة.

وكذلك رسالة الدكتوراه تحت عنوان *المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية: ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا*، لليلى كادة. تعدّ هذه الرسالة تنظيرياً حول التداولية، والتي اختارت الاستلزام الحواري أنموذجا. ورسالة *إستراتيجيات الخطاب القرآني: سورة آل عمران أنموذجا مقاربة لغوية تداولية*، لجيلي هدية، التي تقوم بالبحث عن أنواع إستراتيجيات الخطاب القرآني، وبالخصوص الإستراتيجية التضامنية والتوجيهية والحجاجية التي تأتي لأغراض توجيهية. وكذلك مقالة *الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات التداولية: قراءة في الأفعال الكلامية*، لإيمان جربوعة. فتناول الباحث دور الأفعال الكلامية وما لها من التأثير والوقع من خلال الخطاب القرآني.

ورسالة *التداولية في الخطاب القرآني: سورة الحجرات أنموذجا*، لعميرة حملاوي ولامية عيساوي. فاتبعت الرسالة المنهج التداولي، باعتباره المنهج الملائم لتحليل السورة. ومقالة *البعد التداولي للنسق الحواري في القرآن الكريم: مقاربة معرفية حجاجية*، لعبد الرحمن محمد طعمة الذي عالج الحجاج ثم تنتهي الدراسة بنموذج تطبيقي لتحليل محاورة موسى (عليه السلام) وفرعون المتمثلة في آيات صدر سورة الشعراء، مع رصد أهم الجوانب التداولية والحجاجية من خلالها. ومقالة *أساليب الإقناع في سورة لقمان: دراسة تداولية*، لسناء هادي عباس، وساهرة عدنان وهيب. فقد عنيت المقالة بموضوع الأفعال الكلامية، والملفوظ والعامل والصورة الحجاجية والاستلزام الحواري في السورة بأكملها، وما لها من تأثير في الاستمالة والإقناع.

ولكن ما يميز هذا البحث عن البحوث الأخرى هو التركيز على المستويات اللغوية وعلاقتها بالجانب النفسي والوجداني. فيعدّ هذا البحث بحثا تحليلا يجمع في طيّاته ما بين نظرية أوستين وجان سيرل، ويبرز التطبيق من خلال رؤيتهما حافلا بالحياة والتدفق الجمالي ويقرب للإقناع والإمتاع. وهكذا اتسمت هذه الدراسة باستخدام

أساليب الحجاج، حيث يقف المتلقي على عناصر جديدة أو مؤثرة عند اتصاله بالنص؛ فلا بدّ من التأثير والانفعال، كما يواجه أيضا مع جماليات الانسجام والتلاحم بين بنية الآيات من خلال آيات تعامل المؤمنين في سورة لقمان.

٢. مفهوم التداولية (البرجماتي)[1]

يقول ابن منظور في *لسان العرب*: «تداولنا الأمر، أخذناه بالدول وقالوا دواليك أى المداولة على الأمر ... ودالت الأيام، أي دارت والله ويداولها بين الناس، تداولته الأيدى أخذته هذه مرة وهذه مرة، وتداولنا العمل والأمر بيننا ... ودواليك من تداولوا، أي تداولوا الأمر بينهم بأخذ هذا دولة وهذا دولة» (١٩٩٤م، ج ١١، ص ٢٥٤).

من أهمّ فلاسفة هذا الاتجاه هو تشارلز بيرس[2]، ووليام جيمس[3]، وجون ديوي[4]. ويرى ويليام جيمس أنّ البرجماتية هي تطوير للفكرة التجربية العملية، حيث يقوم هذا الاتجاه على الفعل والعمل في الواقع (بوجادي، ٢٠٠٩م، ص ٤٤)؛ لذلك تهتم بنتائج الأفعال، أكثر من اهتمامها بالأفعال نفسها.

إن مدار اشتغال التداولية في اللسانيات هو مقاصد وغايات المتكلم، وكيف أنها ترسل إلى المتلقي والمخاطب وكل تفاعل تقتضيه الظروف والعوامل المحيطة بها. والتداولية ليست علما لغويا بنيويا يكتفي بدراسة التراكيب النحوية وجوانبها الدلالية فحسب، بل هي الدراسة التي تندرج ضمن اللسانيات ما بعد البنيوية، وهي تهتم أكثر باستعمال اللغة في الخطابات الحجاجية والتواصل الاجتماعي، كما تعنى أيضا بالتلاؤم بين القضية الرمزية والسياقات المرجعية والمقامية. وهناك من يعرفها بأنها جزء من السيميائية التي تعالج العلاقات بين العلامة وبين مستعملها.

تختصّ التداولية بدراسة المعنى، كما يوصله المتكلم أو الكاتب ويفسّره المستمع أو القارئ؛ لذا فإنها مرتبطة بتحليل ما يعنيه الناس بألفاظهم، أكثر من ارتباطها بما يمكن أن تعنيه كلمات أو عبارات هذه الألفاظ المنفصلة. والتداولية هي دراسة المعنى الذي يقصده المتكلم. يتضمن ميدان الدراسة هذا ـ بالضرورة ـ تفسير ما يعنيه الناس في سياق معين وكيفية تأثير السياق في ما يقال، كما يتطلب أيضا التمعن في الآلية التي ينظم من خلالها المتكلمون ما يريدون قوله وفقاً لهوية الذي يتكلمون إليه، وأين، ومتى، وتحت أية ظروف. والتداولية هي دراسة المعنى السياقي (يول، ٢٠١٠م، ص ١٩). فبإمكاننا القول إنها دراسة المعنى بأبعاده المختلفة للوصول إلى ما يقصده المتكلم وما يتوقف على الكلام من كيفية الإيصال والتأثير.

إنّ المقاربة التداولية تدرس النصّ أو الخطاب الأدبي في علاقته بالسياق التواصلي، والتركيز على أفعال الكلام، واستكشاف العلامات المنطقية الحجاجية، والاهتمام بالسياق التواصلي واللفظي. وبتعبير آخر، تركز المقاربة التداولية على عنصر المقصدية والوظيفة في النصوص والخطابات. وبهذا، تتجاوز التداوليات سؤال البنية وسؤال الدلالة، لتهتمّ بسؤال الوظيفة والدور والرسالة والسياق الوظيفي، كما تعنى المقاربة التداولية بفهم العلاقات الموجودة بين المتكلم والمتلقي ضمن سياق معين؛ لأن البعد التداولي ينبني على سلطة المعرفة والاعتقاد. وتسمى هذه المقاربة كذلك بالمقاربة التواصلية، أو المقاربة الوظيفية، أو المقاربة الذرائعية، أو المقاربة المنطقية، أو المقاربة البراجماتية، أو المقاربة الحجاجية ...، وهلّم جرّا (حمداوي، ٢٠١٥م، ص ٤). إن

1 .Pragmatics
2 .Charles Pierce
3 .William James
4 .John Dewey

أصحاب التداولية يهتمون بدراسة النص حال الاستعمال والاستخدام. دراسة اللغة عندهم تكون قيد الاستعمال. فإذا لم تكن حال الاستعمال فإنهم لا يهتمون به ولا يقعون في مجال دراستهم. للغة حال التداول وردود الأفعال وتأثيرات على المتلقي، وهذه الحالة المؤثرة ناتجة عن هذا التداول. وبالنسبة إلى هذه الفكرة اللسانية، على القائل أن يراعي حال المتلقين الذين يتلقون الكلام. بما أنهم مختلفون في الثقافة ونزعاتهم الفكرية والوجدانية والمرسل، إذا لم يكن كلامه مطابقا لمقتضى الحال مع فصاحته، فلن يكون بليغا. فلا بد من القائل أن يراعي المتلقين في أحوالهم. وأما وصول القارئ إلى كل الأغراض المقصودة للمتكلمين فهو أكثر صعوبة في أعمال من يشتغلون بالتداولية. فالأغراض تختلف باختلاف المتلقين ودواعي نفوسهم وتختلف أيضا باختلاف الزمان والمكان.

٣. الأفعال الكلامية والتفاعل التواصلي

تعدّ الأفعال الكلامية في الواقع وفق وصف مفهوم الحدث أحداثا. فنحن حين نعمل شيئا، ننتج تحديداً سلسلة من الأصوات أو الحروف التي لها بوصفها منطوقات لغة معينة، شكل عرفي يمكن معرفته، وننجز هذا العمل بقصد مساوق أيضا؛ لأننا في العادة لا نتحدث ضد إرادتنا، ويمكن أن نتحكم أيضا في لغتنا. ومع ذلك، فإن للمنطوقات اللغوية سلسلة كاملة من السمات الخاصة أيضا (دايك، ٢٠٠١م، ص١٣٠). لكن الأمر في الأفعال الكلامية يتعلق بأحداث مركبة تعلو من خطة الوعي اللغوى وأحداثه، فهي تكون على خطة لغوية غير واعية مرتبطة بجوانب وظلال الكلام.

ونحصل أيضا على حدث ذي نظام أعلى، نقيمه من خلال إنجاز الحدث الكلامي، وهو حدث معنوي أو حدث دلالي. نعبر بمنطوقنا اللغوي عن معنى معين، ويمكن من خلاله أن ننجز أخيرا حدثا إحاليا نحيله إلى موضع معين، وننسب إليه خاصية معينة، ونقيم بهذه الطريقة ربطا بين المنظومة وعدد من الوقائع. وفي العادة تكون تلك الأحداث الدلالية مدركة، ندرك ما نقول، ونتحك فيه من خلال صيغة المنطوق (المصدر نفسه، ٢٠٠١م، ص ١٣١).

والحقيقة أن جون أوستين يرى أن الإنسان حينما يحاول التعبير عن أغراضه المكنونة، لا ينتج فقط أقوال ظاهرية ذات بنيات نحوية وألفاظا معينة، بل ينتج أفعالا مخصوصة. فالإنسان حينما يتكلم ليس بمجرد قول فحسب، بل إن كلام المرسل فعل، له أفعال كثيرة. فالفعل الذي ينجزه المرسل بالكلام نفسه مثل كل ما يقوم به الإنسان من الأفعال الممزوجة بالعمل والفعل. ومن هذه الأفعال هي: الاستنكار، والاستخبار، والترغيب، والتمني، والترهيب، والأمر، والنهي، والوعد، والإنذار، و....

النظرية الكلاسيكية للغة تركز على جانبها الإخباري، ولكن فلسفة اللغة الطبيعية الجديدة تحاول توسيع الاهتمام بالجانب الآخر من اللغة، وهو أن اللغة فعل وإنجاز ويمكن أن توظف لإنجاز وعد أو تهديد أو عقد أو زواج أو تمنٍ و...؛ وبالتالي النظر إلى الجانب الإنشائي والإنجازي، حينما يقول القاضي في المحكم: "بدأت الجلسة"، فإن الجلسة تكون بادئة بمجرد نطقه بالكلام، بما أن القاضي يضع في موضع القدرة والشوكة. فإذن قوله فعل، وليس قولا عاديا فحسب. إذن الأقوال في نظر أوستين ليست مجرد النطق باللسان فحسب، بل لها جانب أساسي، وهو الجانب الفعلي والوقعي. فالوعد مجرد الكلام. والحقيقة أنه ليس مجرد كلام، والفعل الحقيقي للوعد يلزمك أن تنفذ هذا الوعد.

لعلّ الفضل الأكبر في الصور التداولية وخاصة في مجال الأفعال اللغوية، يرجع إلى أوستين في كتابه الشهير *how to do things with words* (= كيف ننجز الأشياء بالكلمات)، حيث إن له شأن كبير في تقدم علم التداولية؛ إذ قدم فيه تفسيرا

لظواهر الخطاب متضمنا في الأفعال الكلامية معتمدا في ذلك على سياق التلفظ ومقام إنتاج الخطاب. ثم أضاف سيرل تصنيفات كثيرة على ما قدمه أوستين من النظريات والقضايا في كتابه *speech acts* (= الأحداث الكلامية).

في تداولية أفعال الكلام، يعد توليد قوة المنطوق الإنجازية مظهرا من مظاهر الاختلاف بين اثنين من مؤسسيها، وهما: أوستين وسيرل. يرى أوستين أن قوة المنطوق الإنجازية تحقيق لمقصد المتكلم تحقيقا ناجح، ولكن سيرل يرى أن القوة حاصل تفسير المستمع للمنطوق (هلدكرافت، ١٩٧٨م، ص ١٥٥).

يقول هيس كي[1]: «إن للأفعال الكلامية مجموعة من الأقوال[2] التي تخدم قول العمل في العملية التواصلية، باعتبارها أداة مهمة تستخدم في الأعمال اليومية: كالتحية، والسلام، والتعامل، والمعذرة، والطلب و...» (٢٠١٤م، ص ٣)، ويصرح أيضا بأن مسيرة هذه الأفعال تختلف باختلاف الثقافات والبيئات المختلفة. يعد سياق الأقوال مرجعا مهما في كشف بنية المقاصد والأغراض فيحدد ما قصد المتكلم من الكلام وما له من تأثير على المتلقي في العملية التواصلية، وقد تستثمر دلالة السياق في استنباط الأقوال غير الصريحة، مما جعلها علماء اللغة أصلا مهما في فهم النصوص بأنماطها المختلفة (ألوت، ٢٠١٠م، ص ٣٨).

٤. الأفعال الكلامية عند سيرل

أشار أحمد المتوكل في كتابه *اللسانيات الوظيفية*، إلى نظرية الأفعال اللغوية عند سيرل. وهي تأتي على الترتيب التالي:

- الأفعال الحكمية: وهي أفعال تمثّل الواقع تمثيلا يكون صادقا أو كاذبا؛
- الأفعال الأمرية: وهي أفعال يقصد بها المتكلّم حمل المخاطب على فعل شيء ما؛
- الأفعال الالتزامية: وهي أفعال يلتزم بها المتكلم بواسطتها بفعل شيء في المستقبل؛
- الأفعال التعبيرية: وهي أفعال تعبر عن حالة نفسية تعينها شروط الصدق حول واقعة ما يحددها المحتوى القضوى للجملة؛
- الأفعال الإنجازية: وهي أفعال يتحقق محتواها القضوى، إذا توافرت شروط إنجازها، حين التلفظ ذاتها (٢٠١٢م، ص ٢٢).

والأفعال الكلامية ـ بحسب هذه التعريفات ـ أفعال مكنونة في الأقوال الملفوظة، أي هناك أفعال تحتوي على أقوال، وتربط هذه الأفعال بالمجتمع الذي تنبعث منه هذه الأفعال. فيكون الغرض منها تحريض الأشخاص على الحركة وطغيان الوقع والأثر إلى أن تنجز أفعالا واقعية في نفسية القارئ. وتنقسم هذه الأفعال على أقسام مختلفة، منها الحكميات والتنفيذيات التي تتجلى على الأوامر والنواهي والعقود والوعديات وغيرها.

والمهم أنّ هذه الأفعال تحيل الصورة الذهنية إلى الصورة الفعلية اللغوية المتماسكة التي نعرفها ونستطيع أن نلمسها بصورة فعلية، وبالتالي هو الوجود الذهني الذي يتحول إلى الوجود العيني والتأثيري. إذن العلامات اللغوية تتجاور وتتعامل معا، لكي يتحقق من خلالها الفعل والتأثير.

---

1 .R. His key
2 .Utterance

٥. تطبيق رؤية سيرل على آيات تعامل المؤمنين في سورة لقمان

٥ـ١. الأفعال الحكمية

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلى عاقِبَةُ الأُمورِ﴾ (لقمان ٣١: ٢٢). وإسلام الوجه إلى الله هو تسليمه له، وهو إقبال الإنسان بكلّيته عليه بالعبادة وإعراضه عمن سواه. والإحسان هو الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة (الطباطبائي، ١٣٦٠هـ.ش، ج ١٦، ص ٢٣٠). يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين في كتابه *تفسير القرآن الكريم: سورة لقمان*:

> معنى "من يسلم ..."، ينقاد له تمام الانقياد، بحيث يسلمه إليه. وهذا غاية ما يكون من التذلل والتوكل. فقال تعالى: "من يسلم وجهه إلى الله"، لم يقل: لله؛ لأن هذا الأسلوب أبلغ، كأنّه أعطاه الله تعالى وبلغ غايته بالوصول إلى الله تعالى. المراد بالوجه، وجه قلبه، وليس وجه بدنه، يعنى اتجاهه، فهو من الوجهة، أي من يتجه إلى الله قصدا وتوكلا واعتماد (١٤٣٦هـ، ص١٣٣).

ويقول أيضا في فوائد هذه الآية:

> الفائدة الأولى: الفائدة العظيمة في الإخلاص والمتابعة؛ الإخلاص من قوله تعالى: "ومن يسلم وجهه إلى الله"، والمتابعة من قوله تعالى: "هو محسن"؛ الفائدة الثانية: إن من لم يكن كذلك فهو هالك لامتمسك له؛ لأنه رتب الاستمساك على هذين: إسلام الوجه لله تعالى مع الإحسان؛ وعلى هذا فمن لم يأت بهما فليس له نجاة» (المصدر نفسه، ص ١٣٦).

فمن أسلم وجهه لله، وانقاد له بامتثال أوامره واجتناب نواهيه وأحسن في طاعته فكانت عبادته وفق شرعه وأمره. وأحسن إلى عباد الله طاعة لله، فقد هدى إلى الحق (مسلم وآخرون، ٢٠١٠م، ج ٦،ص ٣٨). وكما يتبين من خلال ظلاله أنها تحثّ وتشجّع المؤمن على الأعمال الصالحة، منها حياة إحساسك بالآخرين ومساعدتهم، ثم شديدة الميل إلى بشارة الصالحين بما يلاحقونهم من السعادة والفلاح والنجاة. فهذا يفيد الإخبار والإعلان عن عواقب الأمور ونتائجها.

٥ـ٢. الأفعال الالتزامية

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أُولئك عَلى هُدى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِك هُمُ الْمُفْلِحونَ﴾ (لقمان ٣١: ٥). وكذلك فإن وراء الآية استجلابا للمزيد من الوعود والالتزامات. فإن البشارة السارة لا يكتفي السامع منها بالقصر والإيجاز، بل إنه يشعر باللذة بسماعها المرة تلو الأخرى. هنا الذين يترقون في سلم الإحسان وميادينه من خلال إنفاق المال وعدم تعلقهم به في الدنيا، أولئك لهم بشارة ووعد، كأنه أراد بهذا الكلام تمكن المؤمنين من نور الإيمان. فمن الحقيق أن يتصفوا بصفة الفلاح والنجاة. وهذا وعد مفرح من سبحانه تعالى إلى الذين على منهج واضح، بينما غيرهم في طغيانهم يعمهون. وتملأ القلوب أملا ونورا بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النَّعيم ۞ خالِدينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ﴾ (لقمان ٣١: ٨ - ٩)، أي إن المؤمنين المتصدقين يتمتعون بجنات النعيم يوم القيامة مؤبدين فيها، وعد الله حقا، أي وعدا وعده الله حقا لاخلف له (الطبرسي، ٢٠٠٦م، ج ٨، ص ٦٠). وهكذا، هذا وعد من الوعود المقترنة بالسعادة والرخاء، يخرج بالمتلقي من حياتيه الساكنة المعتادة إلى الطغيان في الطاقة الروحية، فيولد نشاط الروح وحيويته، بحيث يستأنس بإيحاءاتها المؤملة للخير.

٥ـ٣. الأفعال التعبيرية

وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان ٣١ : ١٤). إن الفائدة التعبيرية للآية تكمن في الاهتمام بجانب الأم وتؤكد على أهمية حقوقها وتضطرم منها شرارة الترحم والإشفاق عليها؛ فهكذا تستولي على قلب المتلقي، وتملأ عالمه العاطفي، وبالتالي تعبر عما حوته النفس من المشاعر الإيجابية استمداداً من هذه الجملة الاعتراضية.

٥ـ٤. الأفعال الأمرية

ذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان ٣١: ١٩). هذا الكلام يحرص على أن يكشف عن قبح التبختر والتكبر، فيرشد بلسان ممزوج بالوصايا والنصائح، يخاطب المتلقي، لكي يبعث في النفوس الخفقان والجولان لتجسيد الصور المشوّهة للتبختر الذي يمقته الناس. هكذا أراد بصورة غير مباشرة حمل المتلقي على الاعتياد بالتواضع والاتزان والوقار. وأما قوله تعالى: "وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ"، فيشوه السلوكات غير الأخلاقية: كالتكبر، ورفع الصوت، وغير ذلك. فلهذا يحمل المتلقي في هذا المقطع القصير على عدم المبالغة في الكلام؛ لأن رفع الصوت بلا داعٍ ليس من صفات العقلاء؛ إذ لا تطيقه العواطف السليمة، بل تفضل دائما أن تنفعل بالصوت المنخفض الممزوج بالهدوء والثبات؛ لأنه أقرب إلى القلوب فتستميله المشاعر، لما فيه من جمال العلاقة الإنسانية التي تضمن الأمان والسكينة والاحترام.

٥ـ٥. الأفعال الإنجازية

ذلك نحو الاستفهام المجازي في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّماواتِ وما فِي الأَرْضِ﴾ (لقمان ٣١: ٢٠). إنشاء الاستفهام هنا يبعث تغييرا فكريا في النفوس، حيث له مساهمة بارزة في تمكن المعنى المقصود؛ لأن الاستفهام من خلال الآية يخلق طاقة إيجابية، كما يدعو كل المتلقين إلى التعمق والغور في الدلالة.

٦. الأفعال الكلامية عند أوستين

٦ـ١. فعل القول[1]

وهو عملية الإنتاج الصوتي والتركيبي والدلالي للملفوظات. فقولنا: "الجو جميل"، يشكل ملفوظا يتشكل من أصوات تتركب هذه الأصوات بشكل يفضي إلى إكساب الجملة دلالة معينة (رحيمة، ٢٠٠٩م، ص ١٤٩). وفعل القول يعنى القول الذي يقوله المتكلم من الكلام والنص.

٦ـ٢. الفعل الإنجازي[2]

يرى أوزولد ديكرو[3] أنه «من الصعوبة إن لم نقل من المستحيل تقديم تعريف للفعل الإنجازي، ومع ذلك يمكن القول: إن هذا الفعل هو نتاج الفعل السابق، وهو الفعل الإنجازي الحقيقي، وهو قيام بفعل ضمن قول شيء، ثمة قوة تعمل في السامع لتحدد كيفية فهم الملفوظ إنها القوة اللاقولية التي تحدد فهم السامع للملفوظ بوصفه استفهاما أو

1 .locutionary Act
2 .Illocutionary Act
3 .Oswald Ducrot

إخبارا أو أمرا أو ضربا آخر من ضروب الأعمال اللاقولية» (الحباشة، ٢٠١٠م، ص ١٠١). وفعل الإنجاز هو الغرض الذي يرومه المتكلم ويقصده من هذا الكلام ومن هذه القصيدة وغير ذلك.

وينقسم الفعل الإنجازي حسب نظرية أوستين إلى قسمين: الأقوال التقريرية، والأقوال الإنشائية. فأساس الأفعال الكلامية في القرآن الكريم منجزة بمجرد التلفظ بها، كالشهادتين عندما يتلفظ المتكلم بتلفظهما يصير مسلما أو الطلاق أو العقود أو غيرها.

٦ـ٢ـ١. الأقوال التقريرية

الأقوال التي تصف حالا معينا لشيء أو لشخص، وهي عبارة عن الفعل الدال على الثبات، والفعل الدال على الحكم، والفعل الإخباري.

٦ـ٢ـ٢. الأقوال الإنشائية

الأقوال التي لا تصف ولا تخبر ولا تخضع لمعيار التصويت. وإن التلفظ بها يساوي تحقيق فعل في الواقع. يستخدم حدّ الإنشاء[1] على وجوه متنوعة، وتراكيب متقاربة: كالحال في حد الطلب الأمري. ولقد اشتق لفظ الإنشاء من فعل "أنشأ"[2]، وهو فعل يستخدم في اللغة الإنجليزية عادة مع الاسم الحدث[3]، ويدل على أن إحداث التلفظ هو إنجاز لفعل، وإنشاء لحدث (أوستين، ١٩٩١م، ص ١٧). والإنشائيات تشكّل تغييرات قوية لوضع العالم، بحيث تنشاء التأثيرات الروحية الناتجة عن قوة الملفوظ اللاقولية.

٦ـ٣. الفعل التأثيري[4]

إن الفعل الإنجازي يحدث أثرا معينا على المخاطب، فلا بد من استجابته، مثلا للأمر بإغلاق النافذة أو فتح الباب، وهو صورة من صور تحقق الفعل الإنجازي. وفعل التأثير بالقول هو الأثر الذي تلقاه المتلقي وقام به وأثر فيه. ونجد في هذه النظرية أن الفعل الإنجازي يتعلق بالمرسل؛ أما الفعل التأثيري فإنه يتعلق بالمرسل إليه؛ لأنه يتوجه إليه، وقد لا تكتمل دائرة التأثير فيه إلا عند حدوث ردّ فعل من المرسل إليه (رحيمة، ٢٠٠٩م، ص ١٥٠).

٦ـ٤. أنواع الأقوال الكلامية

تنقسم الأقوال الكلامية إلى قسمين:

٦ـ٤ـ١. الفعل الكلامي المباشر[5]

وهو الحدث الكلامي أو الخطابي الذي يدلّ عليه ملفوظ معين دلالة مباشرة وحرفية، من مثل قولنا: "اخرج"، فهو يعني أمر أحدهم بمغادرة المكان، أو قولنا: "كم الساعة؟"، والذي يعني طلب الحصول على معرفة بخصوص الوقت. وعلى هذا، فإن الفعل الإنجازي المباشر هو الذي يعتمد على المتكلم من أجل تحقيقه والمخاطب من أجل اكتشافه والتعرف على ما تحتويه البنية اللسانية الشكلية للملفوظ مباشرة (المصدر نفسه، ٢٠٠٩م، ص ١٥١). وهي

1 .Performative
2 .Perform
3 .Action
4 .Perlocoutonry
5 .Direct Speech Act

عبارة عن الأقوال التي تساوي المحتوى ولا تخرج عن المعنى الظاهري، وتشتمل على الأقوال الناهية، والأقوال الاستفهامية، والأقوال الأمرية.

٦ـ٤ـ٢. الفعل الكلامي غير المباشر[1]

نصادف في الحياة كثيرا من العبارات التي لا تتطابق معانيها الدلالية مع المعاني التي رغب المتكلم في التعبير عنها؛ من مثل قولنا: "صباح الخير"، في مقام معين لا يتناسب مع استخدام العبارة للتحية الصباحية، وإنما قد يفصح المقام عن استخدام هذه العبارة للسخرية والتهكم. يتعلق الأمر بأقوال يرمي من خلالها المتكلمون إلى التعبير بشكل ضمني عن شيء آخر غير المعنى الحرفي، مثلما هو الشأن في التلميحات والسخرية والاستعارة وحالات تعدد المعنى (الحباشة، ٢٠٠٧م، ص ٦٨).

٧. تطبيق رؤية أوستين على آيات تعامل المؤمنين في سورة لقمان

❊ ﴿هُدىً وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ۞ الَّذِينَ يُقِيمونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ يوقِنُونَ ۞ أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِك هُمُ الْمُفْلِحونَ﴾ (لقمان ٣١: ٣ ـ ٥):

ـ الفعل الكلامي: في "هدىً ورحمة للمحسنين ..."، و"الذين...".

ـ الفعل الإسنادي: يدل الإسناد من خلال الآيات السابقة أن المؤمنين هم الذين يتصفون بهذه الصفات، وهذه الصفات مازالت تتجدد آنا فآنا.

ـ فعل الانسجام: فمن أدوات الاتساق في هذه الآيات، هو اسم الموصول "الذين"، وهو يرجع إلى كلمة "المحسنين" المذكورة في الآيات. والضمير المتصل "واو" في أفعال "يؤتون" و"يوقنون"، الذي يربط بين الكلام اللاحق والكلام السابق، يعود أيضا إلى كلمة "المحسنين"، كما يعود إليها اسم الإشارة "أولئك"، حيث يقوم بالربط القبلي والبعدي ويعمل على تحقيق تماسك الآيات واتساقها. فبذلك تتولد ساحة خصبة تشبع ذائقة المتلقي.

ـ القول التقريري: الخبر يتضمن معاني المدح والثناء، حيث يتفاءل باتّصاف المؤمنين بهذه الصفات. فلا محالة أن يفيد الدوام والاستمرارية التي لا تنفصل عنهم أبدا. تعمق "واو" العطف كوسيلة من وسائل الاتصال دائرة نفسية، فتشكل مجالا رحبا للانسجام والثورة اللغوية.

ـ الاقتضاء: على المؤمنين أن يتصفوا بصفات الإحسان وأن يأتوا بالحسنات أعلاها الإيمان وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة (ابن عاشور، ١٩٨٤م، ج ٢١، ص ١٤١). ومن ثم تستمر هذه الأعمال ليتحقق من خلالها التفاعل والتعالق الإيجابي.

ـ الفعل الكلامي المباشر: الدعوة إلى الإحسان والخير والبرّ؛ لأن كل خير في هذه الدنيا إلى سعادة، وكل برّ إلى رحمة. وهذا يطهر مشاعر الروح، ويجعل منها في القيامة إنسانا سعيدا، يخلص من التعاسة والشقاوة.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: فيها ترغيب وتشجيع إلى الاتصاف بالصفات الحسنة، التي يترقى بها الإنسان في ميادين الإحسان. فالمقصود من الزكاة تزكية النفس من عدم التعلق بالدنيا. فلا بد أن ينكسر ظهر الفقر والفاقة في المجتمع، بمقدار ما يعطى من الزكاة التي تؤدي إلى التعادل والتوازن.

1 .Indirect Speech Act

ـ الفعل التأثيري: تؤكد نهاية الآية "أولئك عَلَى هُدى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئك هُمُ الْمُفْلِحُونَ"، على أن الهداة الحقيقيين هم الذين يتصفون بالصفات السابقة. فكأن تمكن نور الإيمان والفلاح مختص بهم لا غيرهم، وهم المفلحون. هكذا أريد من خلال التأكيد طغيان المعنى المراد في النفوس، فضلا عن ذلك تكرار كلمة "أولئك" التي تقوم بالربط القبلي والبعدي وتقدم صورة مشحونة بالمؤثرات العاطفية وتطغى المعنى المقصود وتزيد من مستوى التأثير في الآية.

* ﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصّالِحاتِ لَهُمْ جَنّاتُ النَّعِيمِ﴾ (لقمان ٣١ :٨):

ـ الفعل الكلامي: "إن الذين آمنوا ...".

ـ الفعل الإسنادي: يستغرق الإسناد زمن السرور والاطمئنان في نفوس المؤمنين، ولهذا يأتي للدلالة على الأمل والاطمئنان والتبشير.

ـ فعل الانسجام: هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات في مقابل الذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله. وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآني؛ لأن ذكر الشيء مع مقابله يوضح المعنى ويعطيه حسنا (الشعراوي، ١٩٩١م، ج ١١، ص ١١٥٩٣). فنبرة التقابل بين الآيتين أحدثت انسجاما وتأثيرا جارحا يتبعهما التوازن والمزواجة.

ـ القول التقريري: الخبر في مقام الإخبار والإعلان، مما يحث المتلقي على انتفاضة نفسية أو ضجة شعورية.

ـ الاقتضاء: على المؤمن أولا أن يؤمن بالله تعالى ثم أن يقوم بالأعمال الصالحة حتى يصلح المجتمع. وهذا ما يتسق مع نبرة البشارة والسعادة.

ـ الفعل الكلامي المباشر: الاهتمام بالإيمان والعمل الصالح، لما فيه من المنافع العامة والخاصة فتفتح من خلالها نوافذ النور والانفتاح.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: المقصود من الآية هو التشجيع والترغيب إلى رعاية حقوق الله وعباده، لما فيه من الوعد والتبشير، كما فيها دعوة أيضا إلى الإحياء والحياة، على أساس أن الإنسان بمقدوره الانطلاق والتحرر من مخالب المعصية والفساد.

ـ الفعل التأثيري: النبرة الصوتية للآية برنّتها الشديدة تحقّق غرض الإفادة والمنفعة، مما تبعث روح الإحسان والإيمان في نفوس المجتمع.

* ﴿وَوَصَّيْنا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوالِدَيْك إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (لقمان ٣١: ١٤):

ـ الفعل الكلامي: "ووصينا الإنسان بوالديه ...".

ـ الفعل الإسنادي: ساهم الإسناد هنا بظلاله المقترنة بالاستمرارية والدوام في الكشف عن جمالية الاحترام والتكريم للوالدين وخاصة في حق الأم، وذلك عبر تفصيل الآية واستمرارية المضمون.

ـ القول التقريري: الخبر يفيد حكما وبلاغا، ولكن ظلاله يتضمن إنشاء الحكم.

ـ الاقتضاء: "ووصينا الإنسان بوالديه" إلى آخر الآية، اعتراض واقع بين الكلام المنقول عن لقمان، وليس من كلام لقمان، وإنما اطرد ههنا للدلالة على وجوب شكر الوالدين، كوجوب الشكر لله، بل هو من شكره تعالى لانتهائه إلى وصيته وأمره تعالى، فشكرهما عبادة له تعالى، وعبادته شكر (الطباطبائي، ١٣٦٠هـ.ش، ج ١٦، ص ٢١٦). ويقول الشعراوي في تفسيره: «فشكر الله يستلزم

شكر الوالدين، وشكر الوالدين ينتهي إلى شكر الله» (١٩٩١م، ج ١٩، ص ١١٦٤٥). وخلاصة القول أن وجوب احترام الوالدين وتكريمهما يقتضي الإتيان بالآية.

ـ الفعل الكلامي المباشر: فيها دعوة إلى العناية بحقوق الوالدين وحسن معاملتهما. وهذا الحق عام يشمل كل الجنس البشري.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: الآية تؤكد على حق الأم، لما فيها من الجدة اللغوية والمخالفات اللغوية؛ لأن ما يخشى منه التهاون يجب دعمه؛ لذلك يدعم جانب الضعيف بشيء من التفصيل والتبسيط. إذن الأم أحق بالتكريم والاحترام. والمقصود الضمني من الآية هو بيان عظم حقوق الوالدين. فلا بد من الإتيان بكلمة الوصية.

ـ الفعل التأثيري: في نهاية الآية "إلى المصير"، تهويل وتحذير لمن يخالف أمر الله فيما أوجبه على عاتق المؤمنين من احترام الوالدين. فلا بد منه أن يثير قوة الإشباع الإقناعي في نفسية المتلقي.

❋ ﴿وَإِنْ جَاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بي ما لَيْسَ لَك بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْروفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ﴾ (لقمان ٣١: ١٥):

ـ الفعل الكلامي: "وإن جاهداك ...".

ـ الفعل الإسنادي: يتمركز الإسناد ـ بشكل مغاير لما سبق عن الحكم ـ على تنقيص حقوق الوالدين في بعض الأحيان.

ـ فعل الانسجام: كما تقدم ذكره أنّ الشرط يفتقر إلى جواب، فهو من أسرار تشكيل اللغة وصياغتها. وهذا ما يثبت القواعد المنطقية المنسجمة التي بنيت على المنطق والتدرج. وبالنسبة لهذه القضية، لا يتحقق جواب الشرط إلا إذا تحقق الشرط.

ـ القول التقريري: الخبر يأتي بصورة الشرط، لكي يستثني شيئا عن الحكم السابق.

ـ الاقتضاء: تريد الآية أن تستثني إطاعة الوالدين في بعض الأحيان. فلا بد من الإتيان بهذه الآية.

ـ الفعل الكلامي المباشر: يلزم على المؤمنين تقدير الوالدين واحترامهما؛ ولكن الأمور المتعلقة بحق الله، كثيرا ما تحول بين المرء وإطاعة الوالدين.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: عدم إطاعتهما في ما يخصّ بحق الله، مثل الشرك بالله، ولكن هذا التعامل ليس مع ملامح العنف والشدة.

ـ الفعل التأثيري: خاتم الآية فيه توكيد لما أمر به الإنسان بتكريم الوالدين. وهذا يدل على عظم حقوقهما ووجوب برّهما، بحيث يبثّ تأثير كمال الإحسان بالنسبة إلى الوالدين في نفسية المتلقي، فبالمناسبة يحقق التأثر والتلقى. هكذا يطمس المؤكد حالة التردد والريب في النفس. فلا بد أن ينفعل المتلقي بالمضمون المقصود. ومن جانب آخر، تفيد كلمة "أنبئكم" في كثير من مواضع القرآن، التحذير من الأعمال السيئة.

❋ ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان ٣١: ١٦):

ـ الفعل الكلامي: "إن تك مثقال حبة من خردل ...".

ـ الفعل الإسنادي: يدل الإسناد هنا أن مشاهد هذا العالم وخزائن علمه لا يعلم خفاياها إلا خالقه، فهو العالم المطلق من الأزل إلى الأبد.

ـ فعل الانسجام: يساهم التلازم بين الشرط وجوابه من خلال هذه الآية في إثراء المعنى المقصود. فتنمو من خلاله حياة الانسجام والتناسق، فيكون أسلوب الشرط على هذه الشاكلة: حرف الشرط "إن" + جوابه "يأت بها ...". فالشرط هنا سبيل إلى تحقيق الانسجام والتأثير بين عناصر الآية.

ـ القول التقريري: والآية تضمن معنى الإخبار والإعلان عن اتصاف الله تعالى بالعلم المطلق، كما ترتكز أيضا على قدرته المطلقة وتسعى وراء تجسيد تلك القدرة من خلال دلائل الإيمان في الكون والنفس.

ـ الاقتضاء: يريد لقمان أن يدل ولده على صفة من صفات الحق سبحانه، وهي صفة العلم المطلق الذي لا تخفى عليه خافية، وكأنه يقول له: إياك أن تظن أن ما يخفى على الناس يخفى على الله تعالى (الشعراوي، ١٩٩١م، ج ١٩، ص ١١٦٥١). ويتبع قضية الوالدين بمؤثر هائل، وهو يصور عظمة علم الله ودقته وشموله وإحاطته، تصويرا يرتعش له الوجدان البشري، وهو يتابعه في المجال الكوني الرحيب (قطب، ٢٠٠٣م، ص ٢٧٨١). وهذه الصورة تكون في لفتة غير شائعة، التي تسرب المتلقي إلى داخل الجو المعبر عظمة الله وقدرته.

ـ الفعل الكلامي المباشر: تخبر هذه الآية أن الحكمة المطلقة تنتمي إلى الله دون غيره، وهو الخبير يعلم الأشياء في أدق المواضع. وإتيان الآية بهذه الجزئية والتفكيك يزيد من شدة القدرة وتوسعها إلى اللانهاية. وهذا ما يستلزم العلم بأفعال العباد في كل أحوال. فلا بدّ لهم من الخير والمنفعة العامة على الناس.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: هذه الآية تحذر من أقل الظلم وأكبره؛ فإن الله لا يخفى عليه شيء، بل يأتي به يوم القيامة من أقله وأكبره، فضلا عن ذلك هي تكشف الستار عن روح الرغبة والشوق إلى العمل الصالح وما يتدفق منها من السعادة والرخاء؛ ومن جهة أخرى، تضع هذه الآية من خلال ظلالها إدراكا شموليا لعلم الله المطلق وقدرته الشاملة الهيمنة على كل شيء.

– الفعل التأثيري: هذه هي الطريقة المهمة التي يمكن أن تبث المعنى المقصود. فيستشعر عبرها العباد بشمولية علم الله المطلق، بحيث تدخل نفسية المتلقي في الإحساس بالعجز أو الضعف أمام ما يسمع من القدرة الربانية.

* ﴿يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْروفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمورِ﴾ (لقمان ٣١: ١٧):

ـ الفعل الكلامي: "... أقم الصلاة وإنه عن المنكر ...".

ـ الفعل الإسنادي: الإسناد نوع من الأسباب التي تنشئ الاتصال بين المسند والمسند إليه، وتقوم على تراكيب لغوية، وتتراوح بين الاستمرارية والدوام. فينشئ الإسناد الصورة النامية المليئة بالحياة والدوام.

ـ فعل الانسجام: العطف هنا كوسيلة من وسائل الربط والاتصال، تقود إلى الائتلاف والتلازم بين عناصر الآية، وتشكل مجالا رحبا للتعميق والغور في باطن المقصود، لما فيها من قوة الانسجام والتلازم.

ـ القول الإنشائي: الأمر هنا ينشئ حكما أو بلاغا يفيد إصلاح المجتمع.

ـ الاقتضاء: على المؤمن أن يوسع مجال الرحمة ويتمسك بمقاليد الصبر أمام المتاعب التي يواجهها في سبيل الله.

ـ الفعل الكلامي المباشر: فيه بيان ودعوة إلى المعروف وما يتبعه من المنفعة والسعادة.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: على الوالدين أن يوصيا أبناءهما بهذه القضايا الأربعة، ويرغبانهم في فعل هذه الأفعال، ويحذرانهم من عدم تحققها. لهذه الأفعال دلالات نفسية، من حيث هي تتكفل بسعادة المجتمع وتتناغم مع تطور المعاشرة الحسنة. وهذا ما يتحقق من خلال انصياع الإنسان لمراد الآية وتفاعله مع مدار أفكارها.

ـ الفعل التأثيري: خاتم الآية يؤكد على صعوبة الصبر ومتاعبه. فجميع الأخلاقيات مدارها يعود إلى الصبر والحلم. لذلك تبعث الآية روح المواجهة في نفسية المتلقي تجاه استفزاز من يريد سخطك وغضبك.

* ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كلَّ مُخْتالٍ فَخورٍ﴾ (لقمان ٣١ :١٨):

ـ الفعل الكلامي: "ولا تصعّر خدّك ... ولا تمش ...".

ـ الفعل الإسنادي: الإسناد يحتوي على طلب معين يكون على صورة النهي. فمعنى الاجتناب والتحاشي يفهم من السياق الذي يرسل المعنى إلى الزمن الحاضر فيدل على الاستمرارية والثبات.

ـ فعل الانسجام: فالانسجام بين السبب والأثر هو هذه العلاقة الوطيدة الذي نتسول بها للوصول إلى التقرير والإثبات. ترفض الآية معنى الاستكبار والكبر، والذي لا يليق أحدا إلا الله؛ ولكن لا بد من التمسك بخاتم الآية لتقرير المعنى وإثباته، وبالتالي هو تعليل مقنع لتحريم التبختر والاستكبار بما أنه تعالى لا يحب اتصاف العباد بهذه الصفة. وهكذا يبرز الانسجام شفافا حافلا بالإشعاعات النباضة من خلال علاقة السبب والأثر.

ـ القول الإنشائي: النهي يدل على الكفّ عن فعل التصعير والنفخة والتبختر في المشي، لتفتح وردة المعاملة الحسنة وتورقها، حيث أن التواضع يفيض بإشعاعات إيمانية بالغة التوسع، والذي يفتح نوافذ الولاء النقي الخالص الذي لا يكدره أي حقد أو عداوة.

ـ الاقتضاء: إذا لم يستطيع أبناء الزمان تقويم صعر المتكبر فدعه للزمان، فهو جدير بتقويمه. وكثيرا ما نرى نماذج لأناس تكبروا وتجبروا، فلا يستطيع أحد منهم قياما أو قعودا، بل لا يستطيع أن يذب الطير عن وجهه (الشعراوي، ١٩٩١م، ج ١٩، ص ١١٦٧٢). وأدب الداعي إلى الله ألا يتطاول على الناس، فيفسد بالقدوة ما يصلح بالكلام (قطب، ٢٠٠٣م، ص ٢٧٨١).

ـ الفعل الكلامي المباشر: ترفض الآية معنى الاستكبار والكبر، الذي لا يليق أحدا إلا الله.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: تطلع المعنى إلى بعد من أبعاد الأخلاق، وهو التواضع أو عدم الترفع، مما يؤكد معاني السكينة والاعتدال واللين، ويأتي ذلك المضمون بصورة مؤكدة من أجل إضفاء مزيد من الحيوية والخصوبة.

ـ الفعل التأثيري: خاتم الآية جاء على صورة التأكيد الذي هو من وسائل الحجاج، بحيث تملئ موجة من الاستنكار والاستياء في النفوس السليمة، فهو يتيح الفرصة لاندفاق معاني السكينة والوقار.

* ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان ٣١ :١٩):

ـ الفعل الكلامي: "وأقصد في مشيك واغضض من ...".

ـ الفعل الإسنادي: الإسناد في الآية يدل على القوة المتدفقة للبيان مع دلالة الاستمرار والثبات الذي ينبض بحركة مستمرة. فتلك الصفة الموجودة في الآية ينشئ إيقاعها التواضع والطمأنينة في النفوس المتعطشة.

ـ فعل الانسجام: التعليل الذي قد جاء في نهاية الآية وبلغ درجة التمثيل، يعدّ سبب للربط والانسجام والتناسق. وهذا يؤدي إلى الربط في الدلالة المعنوية، وكأنه كلمة واحدة.

ـ القول الإنشائي: الأمر هنا ينشئ الشعور بالتواضع والوقار في النفس، مما يروي بصوته الناصع المؤانسة والتعاطف.

ـ الاقتضاء: على المؤمن أن يتوسط في مشيه ولا يدبّ دبيب المتماوتين، ولا يثب وثب الشطار. وكذلك عليه أن ينقص من صوته، أي لا يتكلف رفع الصوت ويأخذ منه ما يحتاج إليه (القرطبي، ٢٠٠٦م، ص ٨٠٤١).

ـ الفعل الكلامي المباشر: الاهتمام بالسلوكات العامة والأخلاق المتواضعة. وجاءت نهاية الآية على سبيل المثل الذي يؤدي إلى الإقناع والإمتاع بشكل واسع.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: تظهر هذه الآية أن مرض الكبر والترفع يظهر ملامحه في المشي والصوت. ومن جهة أخرى، هي دعوة إلى إقبال الناس بصفحة الوجه كلها، دون أدنى كبر أو استكبار، سواء كان في المشي أو في الصوت. إذن هذه الأفعال من الأفعال الترغيبية والتشجيعية، مما فيها من أثر الحثّ والتشجيع.

ـ الفعل التأثيري: من المحاور الرئيسة في الآية العناية بخفض الصوت وبمشيئة متأنية؛ لأن هذه الصفات أقرب إلى قلوب المتلقين وأشد تأثيرا عليهم، بما فيهما من رعاية القيم الحضارية والإنسانية، كما تضفي نهاية الآية على المفهوم دلالة ممكثفة مضاعة، بأن يجعل من الصراخ نوعا من الرفض للقيم الحضارية.

❋ ﴿يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان ٣١ :١٦):

ـ الفعل الكلامي: "يا بني ...".

ـ الفعل الإسنادي: الإسناد من خلال تكرار النداء يفتح نوافذ التأثير والاستمالة لما فيه من تعميق التجربة الوجدانية، حيث يظهر الغرض في صورة قوية كاملة.

ـ فعل الانسجام: صورة التكرار التي تبرز أمامنا تكرار قوله تعالى على لسان لقمان، حيث يقول: "يا بني ...". فكلمة "بني" تصغير، من حكمه التحنن والتودد والتحبب. فتكراره سبب لزيادة الحنان والتلطف والتودد وظل صدى التكرار من خلال هذا النداء يغطي الهوة والحاجز بين عناصر الآية، لما فيه من قوة الامتزاج والتلاحم.

ـ القول الإنشائي: النداء هنا مازال يحاول بعث التغيير في المنهج الفكري، لما يقترنه من أساليب الإقناع والاستمالة. وهو مؤثر في تحويل أحوال المتلقي وتكوين شخصيته الاجتماعية، مما يؤدي إلى الانتباه في مضامين الآيات والتفكير فيها.

ـ الاقتضاء: يستلزم التكثيف الدلالي الإتيان بهذا التكرار لما فيه من تأسيس التجارب اللغوية الإبداعية. ومن أسباب نزول هذه الآية هي تحذير الابن من المخالفة، لقوله تعالى: "يأت به الله". فلا تخفى عليه ولا تفوته، كما تبرز من خلالها عموم علم الله تعالى وإحاطته وتمام قدرته أيضا، وذلك بالإتيان بها (العثيمين، ١٤٣٦هـ، ص ١٠٣).

ـ الفعل الكلامي المباشر: المقصود المباشر من هذه الآية هو الدعوة إلى جميع الإيجابيات.

ـ الفعل الكلامي غير المباشر: بهذا التكرار، يلحّ الخطاب على إثبات الحالة الشعورية التي يريد سيدنا لقمان نقلها لابنه.

ـ الفعل التأثيري: جاء تكرار النداء مشحونا بمضامين التشجيع والترغيب، والذي يعمق طاقة إبداعية لغوية تبعث الحياة والدينامية في الآيات. فلا بدّ للمتلقي من الجذب والأسر.

٨. دور الحجاج في الأفعال الكلامية

إنّ نظرية الحجاج في اللغة وضع أسسها اللغوي الفرنسي أوزولد ديكرو[1] نظريا ومنهجيا (العزاوي، ٢٠٠٦م، ص ٩). والحجاج يستمد وجوده وفعاليته من مرجعيته المصدرة إياه (المرسل)؛ لأنه يتمحور غالبا على ما يحمله المرسل

1 .O. Ducrot

من فضاء فكري فردي أو جماعي، وفإن الخطاب مهما ينحو نحو البعد الإنساني الذي يستعمل الأفق المعرفي في التواصل مع الآخر؛ فإنه يقوم بنقل رؤاه عندما يجد عليه أن يكون مؤثرا في الآخر بغية استمالته، وجعله يشاركه في هذه الرؤى. فالباعث والمحرك له قضية لا يقينية مختلف عليها (صادق، ٢٠١٥م، ص ١٨). ولهذا فإن وظيفة الخطاب الحجاجي[1] ـ كما يبين عبد الرحمن بودرع ـ تعتمد على الأدوات اللغوية والأساليب البلاغية من أجل بيان المعنى المطابق لمقاصد المتكلم؛ والمراد تبليغه للمخاطب أو إقناعه به، أي من أجل أداء وظيفة إقناعية استدلالية (٢٠١٥م، ص ٢٥).

إنّ الإقناع يتوقف كذلك على القول الذي يجب بناؤه حجاجيا والعمل على تعبئته بالأدلة القادرة على إقامة الاعتقادات أو تغييرها؛ لأن الإقناع ـ كما أكد أرسطو ـ يحدث عن الكلام نفسه، إذا أثبتنا حقيقة أو شبه حقيقة بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالة المطلوبة (عادل، ٢٠١٣م، ص ٥٥). لقد انبثقت نظرية الحجاج في اللغة من داخل نظرية الأفعال اللغوية التي وضع أسسها أوستين وسيرل. وقد قام ديكرو بتطوير أفكار وآراء أوستين بالخصوص واقترح في هذا الإطار، إضافة فعلين لغويين، هما: فعل الاقتضاء، وفعل الحجاج (النقاري، ٢٠٠٦م، ص ٥٦). والحجاج الذي نتكلم عنه في هذه الورقة، هو الحجاج اللغوي والحجاج البلاغي.

٨ـ١. الروابط الحجاجية

إذا كانت للغة وظيفة حجاجية فقط اشتملت على مؤشرات لغوية خاصة بالحجاج. فاللغة العربية تشتمل على عدد كبير من الروابط والعوامل الحجاجية التي لا يمكن تعريفها إلا بالإحالة إلى قيمتها الحجاجية (العزاوي، ٢٠٠٦م، ص ٢٦). والروابط الحجاجية تشمل "بل"، و"لكن"، و"إذن"، و"لاسيما"، و"حتى"، و"لأن"، و"بما أن"، و"إذا"، و"الواو"، و"الفاء"، و"اللام"، و"كي" و....

٨ـ١ـ١. الحجاج اللغوي

تستخدم فيه الوسائل اللغوية، مثل: التراكيب الدالة على الثوابت والحقائق والتأكيد، والأساليب الإقناعية المنطقية، مثل: الشرط والاستثناء والترقي في الحجاج حسب درجاته اللغوية. وبناء الجمل على هيئة قضايا منطقية تبدأ بمقدمات وتنتهي بمسلمات (طعمة، ٢٠١٨م، ص ١٠٣). لذلك وظيفة اللغة الأساسية ليست هي الوظيفة الإخبارية، بل هي الوظيفة الإقناعية الحجاجية.

* التكرار: هو إلحاح على جهة مهمة من العبارة، يعنى بها المؤلف أكثر من عنايته بسواها، وهو بذلك ذو دلالة نفسية قيمة (شرتح، ٢٠٠٥م، ص ٥)، حيث له دور مهم في عكس الانفعالات النفسية المكنونة؛ إذ يرسل الخطاب الشعري إلى مرحلة الإقناع والسكوت. صورة التكرار التي تبرز أمامنا في هذه السورة، يلاحظ فيها تكرار قوله تعالى على لسان لقمان "يا بني..."، وكلمة "بني" تصغير، من حكمه التحنن والتودد والتحبب. فتكراره بصورة النداء سبب لزيادة الحنان والتلطف والتودد، مما يزرع الأمر في قلب الابن. هذه العبارة تدل على قربك منه واتصالك الوثيق به، لعله كان بدوره يمزج بين السورة والتسلسل اللغوي أو التلقائي إلى نفسية المتلقي وأحاسيسه، وظل صدى التكرار من خلال هذا النداء يغطي الهوة والحاجز بين عناصر الآية، لما فيه من قوة الامتزاج والتلاحم.

1 .Argumentation

* التاكيد: من الواضح أنه يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها. فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى التوكيد، وقد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام (السامرائي، ٢٠٠٦م، ص ١٢٥). إن مقصود من التأكيد، هو تقرير المعنى في النفس، وتقويته في ذهن السامع وإزالة الشك. إذن للتأكيد أدوات وتراكيب، حيث لها دور بارز في إيصال المعاني إلى الصعود والكمال. وذلك يتمثل في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّـهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخورٍ﴾ (لقمان ٣١ : ١٨). التأكيد من أبرز الوسائل المؤثرة في استجاشة العواطف وطغيانها، ويعرف بأنه فن الحجاج والإقناع أو هو يشد المتلقي إلى الخطاب اللغوي ويستميله. في هذه الآية، ينهض التأكيد بالمتلقي ويثيره ما في النفس من التهويل والترهيب، كما يلمس المتلقي سوء العاقبة للتكبّر والتبختر في قلبه ويتحسس ملامح التهديد والتوبيخ الضمنية من قبل الله تعالى. إذن يكشف خاتم الآية شناعة التكبر والكبر ويضاعف حدتها، لما فيه من عوامل الاستفزاز النفسي. وتكمن قيمتها الحجاجية في الربط الحجاجي "الواو" و"إن" فتضطلع بدور هام في الإقناع والاستمالة. إذن تتوافر الإمكانات الهائلة المؤثرة للغة مستمدة من الروابط الحجاجية وعواملها.

* التقديم والتأخير: وهو يعدّ من أبرز مظاهر العدول في التركيب النحوي ويحقق غرضاً نفسياً دلالياً ويقوم بوظيفة جمالية، باعتباره ملمحاً أسلوبياً خاصاً، ويتم عن طريق كسر العلاقات الطبيعية المألوفة بين المسند والمسند إليه في الجملة ليضعها في سياق جديد وعلاقة متميزة (الحسيني، ٢٠٠٤م، ص ١٩٥). فهذه الظاهرة كثيرة التفشي في القرآن الكريم، فهي وسيلة من وسائل الإقناع والحجاج؛ إذ تستميل القلوب حالا. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿... وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكم فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلونَ﴾ (لقمان ٣١ : ٨)، حيث قدم الجار والمجرور "إلى" على المسند إليه "مرجعكم"؛ لأن المقام يصور قدرة الله ويشملها بأوسع الأبعاد. فالتقديم هنا تنبيه المتلقي أو تحذيره من الشعور بالتفوق والغلبة على قدرة الله؛ لأنه هو العالم المطلق ولا ترجع الأمور إلى غيره. بذلك التقديم يسبب إلى تمكين المعنى وإفاقة المتلقي ورجوعه إلى نفسه في الفور، مما لا يفتح بابا للشك والريب فيما يخص بقدرته المطلقة. فهذا منبعث من التقديم كوسيلة الإقناع والاستمالة الروحية.

٨ـ١ـ٢. الحجاج البلاغي

فالصورة لغةً تخيل الهيئة أو الشكل الذي تتميز به الموجودات على اختلافها وكثرتها. فلكل شيء صورة خاصة يتميز بها. وعند النقاد، الصورة الفنية كل ضرب من ضروب المجاز يتجاوز معناه الظاهري، ولو جاء منقولا عن الواقع، فهي إما مادية حسية وإما معنوية تدرك بالعقل والتمثيل الخيالي ويميل الأديب إلى التعبير بالصورة في الأغلب، عندما لا تفي الألفاظ المفردة بالإحاطة بالمعاني العامة أو نقل مشاعر في نفسه، «فيفزع إلى فن التصوير في اللغة التي تقدم صورا متعددة للتعبير عن المعنى الواحد فيختار منها صورة يتخذها قالبا يصب فيها ما في نفسه وينقله إلى السامع على شكل يرضاه» (عبد الرحمن، ٢٠٠٦م، ص ١٥٦). يتسم علم البلاغة بسمات لغوية لها إيحاءات مختلفة في الأعمال الأدبية، ذلك أن الحجاج هو وسيلة من وسائل التبيان، تمنحه البلاغة طاقة بيانية قوية تغير الأسلوب العادي للغة، وذلك بانتقاء أساليب حجاجية بلاغية، كالاستعارة، والتمثيل، والكناية واستعمالها استعمالا مؤثرا، على وجه الخصوص.

* الحجاج بالاستعارة: الاستعارة من أكثر استعمالات اللغة فاعليةً. فتدخل في جانب التصوير والتأثير وفي تطوير اللغة وبث الحياة فيها. فهي تتصدر بشكل كبير بنية الكلام الإنساني؛ إذ تعد عاملا رئيسا في الحفز والحث وأداة للتعبير، ومصدرا للترادف تعدد المعني، ومتنفسا للعواطف والمشاعر الانفعالية، ووسيلة لملء الفراغات في المصطلحات (أبو العدوس، ١٩٩٧م، ص ١١).

إنّ العامل في تأثير الاستعارة هو المسافة بين المشبه والمشبه به. مثالنا في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (لقمان ٣١: ٢٢). فاصطلاح "العروة الوثقى" استعارة تمثيلية تطغى الطاقة التعبيرية فيها على النفوس وعلى من يؤثر بلمسات بيانية وعاطفية. يضرب هذا المثل لمن يتبعون منهج الإسلام والإيمان وينفعلون بملامحه التأثيرية. فالجامع بين المشبه والمشبه به هو الربط الوثيق الذي يربط شيء بشيء اتصالا وثيقا. فالاستعارة هنا واضعة لأساس المؤثرات النفسية وباعثة روح الحياة في روح المتلقي بما خلفته من أمارات تخضع له العاطفة السليمة، فبالتالي تنفعل بها وتضاعف درجة الانفعال والتأثر.

وحول قوله تعالى على لسان لقمان: ﴿وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنّاسِ﴾، يقول الطبرسي في تفسيره: «ولاتمل وجهك من الناس تكبرا، ولاتعرض عمن يكلمك استخفافا به، وهذا معنى قول ابن عباس وأبى عبد الله، يقال: أصاب البعير صعر، أي داء يلوئ منه عنقه، فكان المعنى: لاتلزم خدك للصعر؛ لأنه لا داء للإنسان أدوى من الكبر» (٢٠٠٦، ج ٨، ص ٦٨).

فقد استعير الصعر لميل العنق لتشابهما في عدم التوازن والاستقرار؛ لأن الشيء المعوج لا يصل إلى غايته، فعلى المؤمن أن يقبل على الناس بكل الوجه، لما فيه من التواضع والأدب؛ فالمتكبر لا ينظر إلى من يتكلمه؛ لذلك تشبثت العبارة بالاستعارة كوسيلة من وسائل الحجاج لتشنيع صفة الكبر والطيش. فيقول الشعراوي حول كلمة "التصعير": «تصعر من الصعر، وهو في الأصل داء يصيب البعير يجعله يميل برقبته، ويشبه به الإنسان المتكبر الذي يميل بخده، ويعرض عن الناس تكبرا» (١٩٩١م، ج ١٩، ص ١١٦٧١). فالصعر هو أن ينظر الإنسان إلى الناس بنظرة احتقار وازدراء، كأنّه جبل والناس قاع صفصف.

* الحجاج بالكناية: والكناية ذكر اللفظ في غير ما وضع له مع جواز إرادة ما وضع له (التفتازاني، ١٣٦٣هـ.ش، ص ٢٦٤). هناك الكناية في قوله تعالى: ﴿يا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِها اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (لقمان ٣١ :١٦). إن فائدة هذه الكناية تكمن في تمكن المتلقي من فهم معنى العلم المطلق الرباني الذي يبث رنينه في النفوس الانفجار العاطفي المؤثر بالنسبة إلى قدرة الله وعلمه اللامتناهي. وهذا الأثر التمكني يعتمد على الكناية كوسيلة حجاجية تستفز المتلقي وتلتهب ثورة عاطفية في شعوره. فلا بد من التأثر والانفعال.

* الحجاج بالتمثيل: والتمثيل هو كلّ كلام يحمل مثلا. لا يخفى على من له أدنى تمييز أن الأغراض التي تحملها الأمثال، لا تعرف من الألفاظ، ولكن تدل المعاني الحاصلة من مجموع الكلام على الأغراض والمقاصد (الجرجاني، ١٩٩١م، ص ٤٤١). فقد زال الشك وارتفع في أن طريق العلم بما يراد إثباته والخبر به في التمثيل. وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ (لقمان ٣١ : ١٩).

من هذه الآية، يتبين أن صوت الحمار يتمثل في التمثيل الإقناعي أو الحجاجي، لكي يشنع المتلقي من خلاله جهارة الصوت ويستقبحه؛ لأن الصوت المنخفض من أمارات الحضارة والأدب، مما يعرض الإنسان عينة التواضع والانكسار. فهذا ليس ذم الحمار؛ لأن الله تعالى خلق الحمار هكذا، بل أراد من خلال هذا التمثيل أن يلفت أنظار المجتمع إلى الظاهرة المخالفة للعرف والعادة. وقد حاولنا رصد هذه الأفعال وإحصائها في الجدول التالي بحسب تواترها.

رصد هذه الأفعال الموجودة في سورة لقمان حسب المؤشرات التالية

الرقم	الأفعال الكلامية	تحديد الأفعال الكلامية	الشرح والتفصيل
١	وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ ...	التقريري	الغرض منها الإخبار
٢	... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ	الالتزامي	فيها الوعد والبشارة
٣	... لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ	الالتزامي	فيها الوعد والبشارة
٤	... حَمَلَتْهُ أُمُّهُ ...	التعبيري	الغرض منها التعبير عن الألم
٥	وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ...	الطلبي	طلب المخاطب لإنجاز فعل ما
٦	... وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ...	التقريري	الغرض منها الإخبار والتشجيع
٧	... فَلَا تُطِعْهُمَا ...	الطلبي	طلب المخاطب لعدم إنجاز فعل ما
٨	... وَصَاحِبْهُمَا ...	الطلبي والتعبيري	فيها معاني الطلب والتحبب
٩	يَا بُنَيَّ ...	الطلبي والتعبيري	فيها معاني الطلب والتحبب
١٠	يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ	الطلبي	طلب المخاطب لإنجاز فعل ما
١١	وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ ...	الطلبي والتعبيري	الغرض منها الطلب والتعبير عن الشعور
١٢	يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ ...	التقريري والتصريحي	الغرض منها الإخبار والإتيان بشيء جديد

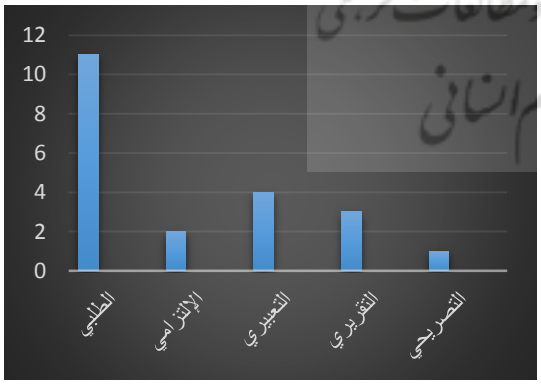

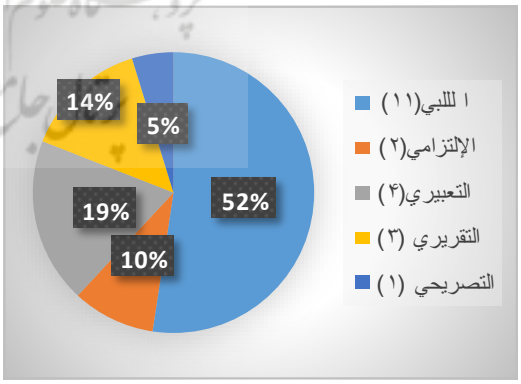

الخاتمة

وبعد هذه الدراسة العلمية في رحاب آليات تماسك النصّ القرآني لآيات تعامل المؤمنين، توصّل البحث إلى جملة من نتائج، يمكن إجمال أبرزها على النحو الآتي:

ـ تتوزع الأفعال الكلامية المتضمنة في آيات تعامل المؤمنين بين الأفعال الكلامية الوصفية (الخبرية) والأفعال الكلامية الأدائية، وتحتوي أكثر هذه الأفعال على معان أخرى غير المعاني المباشرة، يمكن الوصول إليها من خلال المقام الذي وردت فيه.

ـ جاءت أفعال النهي والأمر في تعامل المؤمنين للدلالة على التحذير والتنبيه امتداداً إلى التشجيع والترغيب في بعض الأحيان.

ـ تخلق الأفعال الكلامية من خلال سورة لقمان، طاقةً إبداعية تبعث الحياة في الآيات وتؤثّر في عواطف النفوس الخامدة، حيث تفسح المجال لبنية التعاطف والتلاحم، والتي تعتبر مكملة لقواعد المجتمع؛ وهذا ما يسمّى بشبكة التواصل، والتي تنبني على معاني الائتلاف والتلاؤم والتمازج؛ هذا بالإضافة إلى أن هذه القواعد أو الشبكة تشحن الطاقة الكامنة الإيجابية في نفسية المتلقي؛ فلا بدّ لها من تحويل الأحوال الانفرادية إلى الازدواجية الضرورية للنظام الاجتماعي.

ـ قد يتميز خطاب المؤمنين في عمومه بأنه ذو فعالية حجاجية، كما نراه في قوله تعالى في تقبيح الصوت المرتفع: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِك إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾. فلجوء الكلام إلى هذا التمثيل يكون سبب طغيان الإقبال والاستماع في روح المخاطبين.

ـ أفعال الأمر والنهي تدعو إلى انفتاح المعاشرة الحسنة، مما يلحّ على أن تكون جسور التواصل مزدهرةً تماما بين المؤمنين وبين الآخرين، وهذا ما ينبعث من أثر تشجيع الأفعال.

ـ تكشف الأفعال الكلامية عن مقاصد الكلام وما يتضمنه من الجوانب غير الصريحة في السورة التي تبثّ معاني الإصلاح والأخلاق والاحترام معتمدة على الأسلوب التداولي اللساني.

ـ تلاحظ الأفعال الترغيبية والتشجيعية في سورة لقمان، بما فيها من أثر الحث والتشجيع. وذلك نحو تكرار النداء في "يا بني"، مما يعدّ سببا لزيادة التحنن والتلطف والحنان والاستئناس، بحيث يشدّ المتلقي ويجذبه.

***

المصادر والمراجع

أ ـ العربية

* ***القرآن الكريم***.

ابن عاشور، محمد طاهر. (١٩٨٤م). ***تفسير التحرير والتنوير***. تونس: الدار التونسية للنشر.

ابن منظور، محمد بن مكرم. (١٩٩٤م). ***لسان العرب***. ط ٣. بيروت: دار صادر.

أبو العدوس، يوسف. (١٩٩٧م). ***الاستعارة في النقد الأدبي الحديث***. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع.

أوستين، جون. (١٩٩١م). ***نظرية أفعال الكلام العامة: كيف ننجز الأشياء بالكلام***. ترجمة عبد القادر قنيني. د.م: د.ن.

بوجادي، خليفة. (٢٠٠٩م). ***في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم***. الجزائر: دار الحكمة للنشر والتوزيع.

بودرع، عبد الرحمن. (۲۰۱۵م). ***في تحليل الخطاب الاجتماعي السياسي: قضايا ونماذج من الواقع العربي المعاصر***. عمان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر. (۱۳٦۳هـ.ش). ***مختصر المعاني***. ط ۲. قم: امير.

جربوعة، إيمان. (۲۰۱۱م). «الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات التداولية: قراءة في الأفعال الكلامية». ***الممارسات اللغوية***. ع ۷. ص ۲۳۹ ـ ۲۵۳.

الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر. (۱۹۹۱م). ***دلائل الإعجاز***. تحقيق محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني.

جيلي، هدية. (۲۰۱۷م). ***إستراتيجيات الخطاب القرآني: سورة آل عمران أنموذجا***. أطروحة الدكتوراه. جامعة سطيف.

الحباشة، صابر. (۲۰۰۷م). ***التداولية من أوستين إلى غوفمان***. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

ـــــــــــ. (۲۰۱۰م). ***لسانيات الخطاب الأسلوبية والتلفظ والتداولية***. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع.

الحسيني، راشد بن محمد. (۲۰۰٤م). ***البنى الأسلوبية في النص الشعري***. لندن: دار الحكمة.

حمداوي، جميل. (۲۰۱۵م). ***التداوليات وتحليل الخطاب***. سيدني: مكتبة المثقف.

حملاوي، عميرة؛ ولامية عيساوي. (۲۰۱۵م). ***التداولية في الخطاب القرآني: سورة الحجرات أنموذجا مقاربة تداولية***. رسالة الماجستير. جامعة عبد الرحمان.

دايك، فان. (۲۰۰۱م). ***علم النص مدخل متداخل الاختصاصات***. ترجمة حسن بحيري. القاهرة: دار القاهرة للكتاب.

رحيمة، شيتر. (۲۰۰۹م). ***تداولية النص الشعري: جمهرة أشعار العرب نموذجا***. أطروحة الدكتوراه. جامعة الحاج لخضر باتنه. الجزائر.

السامرائي، فاضل. (۲۰۰٦م). ***التعبير القرآني***. ط ٤. عمان: دار عمار.

شرتح، عصام. (۲۰۰۵م). ***ظواهر أسلوبية في شعر بدوي الجبل***. دمشق: اتحاد الكتاب العربي.

الشعراوي، محمد متولي. (۱۹۹۱م). ***تفسير الشعراوي***. القاهرة: مجمع البحوث الإسلامية بجامعة الأزهر.

صادق، مثنى كاظم. (۲۰۱۵م). ***أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي: تنظير وتطبيق على السور المكية***. بيروت: ضفاف.

الطباطبائي، محمد حسين. (۱۳٦۰هـ.ش). ***الميزان في تفسير القرآن***. قم: جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.

الطبرسي، الفضل بن الحسن. (۲۰۰٦م). ***مجمع البيان في تفسير القرآن***. بيروت: دار المرتضى.

طعمة، عبد الرحمن محمد. (۲۰۱۸م).«البعد التداولي للنسق الحواري في القرآن الكريم: مقاربة معرفية حجاجية». ***عالمية لبحوث القرآن***. ج ۱۰. ع ۱. ص ۸۹ ـ ۱۲۸.

عادل، عبد اللطيف. (۲۰۱۳م). ***بلاغة الإقناع في المناظرة***. بيروت: ضفاف.

عباس، سناء هادي؛ وساهرة عدنان وهيب. (۲۰۱۷م). «أساليب الإقناع في سورة لقمان: دراسة تداولية». ***دراسات لغوية***. ع ٤. ص ۱۸۳ ـ ۲۰۷.

عبد الرحمن، محمد سعيد. (۲۰۰٦م). ***دراسة أسلوبية في سورة الكهف***. رسالة الماجستير. جامعة النجاح الوطنية.

العثيمين، محمد بن صالح. (۱٤۳٦ه). ***تفسير القرآن الكريم: سورة لقمان***. القصيم: دار الدرة للنشر والتوزيع.

العزاوي، أبو بكر. (۲۰۰٦م). ***اللغة والحجاج***. البيضاء: الأحمدية للنشر.

القرطبي، محمد بن أحمد. (۲۰۰٦م). ***الجامع لأحكام القرآن***. بيروت: مؤسسة الرسالة.

قطب، سيد. (۲۰۰۳م). ***في ظلال القرآن***. ط ۳۲. القاهرة: دار الشروق.

كادة، ليلى. (د.ت). ***المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية: ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا***. رسالة الدكتوراه. جامعة الحاج لخضر.

لعور، آمنة. (۲۰۱۱م). ***الأفعال الكلامية في سورة الكهف: دراسة تداولية***. رسالة الماجستير. جامعة منتوري.

المتوكل، أحمد. (۲۰۱۲م). ***اللسانيات الوظيفية المقارنة: دراسة في التنميط والتطور***. الجزيرة: الاختلاف.

محمد، فاطمة محمد عبد الرحمن. (۲۰۱۷م). ***الاتصال اللساني ونظرياته التداولية في التفكير البلاغي***. أطروحة الدكتوراه. جامعة النيلين.

مسلم، مصطفى. (٢٠١٠م). ***التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم***. جامعة الشارقة. كلية الدراسات العليا والبحث العلمي.

النقاري، حمو. (٢٠٠٦م). ***التحاجج: طبيعته ومجالاته ووظائفه***. الرباط. الدار البيضاء.

يول، جورج. (٢٠١٠م). ***التداولية***. ترجمة قصي العتابي. بيروت: الدار العربية للعلوم.

ب ـ الفارسية

خاکپور، حسین؛ و فاطمه عقدایی. (۱۳۹۷هـ.ش). «تحلیل متن‌شناختی سوره لقمان بر اساس نظریه کنش‌گفتار جان سیرل». ***متون اسلامی و مطالعات ادبی***. ش ۲. ص ۹ ـ ۳۵.

ج ـ الإنجليزية

ألوت

Allott, Nicholas. (2010). ***In pragmatics***. London: continuum.

هيس كي

His key, R. (2014). ***Speech act theory***. n p: n p.

هلدكرافت

Holdcroft, David. (1978). ***words and deads, proplems in the theory of speech acts***. Oxford: clarendon press.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی